﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ ١١﴾ [الرّعد: 11]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْـر المُعقِّباتِ استكمالٌ لذِكْر أحوالِ الإنسانِ

لمّا أخبر ربُّ العزَّة سبحانه أنَّ السِّرَّ والإعلان، والغيب والشَّهادة سواءٌ في علمه، وأنَّه لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء؛ بيَّن وجودَ المُعقِّبات، وأنَّ إرادةَ الله إذا وقعت؛ فلا حافظَ من أمرِ الله إلا هو، وهذا دليل إحاطته سبحانه الكاملة؛ وهو مع ذلك لا يسلُب قومًا نعمةً أنعم بها عليهم حتى يغيِّروا الَّذي بأنفسهم من الخير والأعمال الصّالحة، أو يُغيِّروا الفطرة الَّتي فطرهم عليها؛ فإذا حلَّت عقوبته سبحانه بقوم لاستحقاقهم لذلك، فلا رادَّ لعذابه، ولا ناقض لحكمه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾: عَقِبُ كلِّ شيء، وعَقْبه، وعاقبته: آخره[2]، والعَقِب: مؤخَّر القَدَم، والعاقِب: الَّذي يخلف مَن كان قبله في الخير، وهو من أسماء النَّبيِّ محمَّد ﷺ؛ لأنَّه عقب مَنْ كان قبلَه من الأنبياء، وكل شيء خلف بعد شيء؛ فهو عاقب له[3]. وأصل معناه: "تأخير شيء، وإتيانه بعد غيره"[4].

والتَّعقيب: أن يأتي بشيء بعد آخر، والمُعقِّب: المُتتبِّع لشيء من حقٍّ أو غيره ليستردَّه[5]، و"التَّعاقب والاعتقاب: التَّداول"[6].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/20، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 6/360، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/81، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/102.
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عقب).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، المُجمَل: (عقب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (عقب).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (عقب).

والمُعقِّبات: جمع مُعقِّبة، اسم فاعل عَقَبه إذا تَبِعه؛ وصيغة التَّفعيل فيه للمبالغة في العَقِب، يُقال: عَقَبه؛ إذا اتَّبعه واشتقاقه من العَقِب، وهو اسم لمؤخَّر القَدَم؛ لأنَّ الَّذي يتبع غيره كأنَّه يطأ على عقبه، والمُراد به في الآيةِ: الملائكة، ملائكة باللَّيل تعقب ملائكة النَّهار، وهم الحفَظَة، ومفرده مُعقِّب[1]، هذا قولٌ لدى المفسِّرين، والقول الآخر، المقصودُ بالمُعقِّبات: الحرس الَّذين يكونون مع الأمير[2]، وما يجري هذا المجرى، ممّا يتَّخذه النّاس لحمايتِهم من الأقدارِ.

2) ﴿يُغَيِّرُ﴾: "تغيَّر الشَّيء عن حاله: تحوَّل. وغيَّره: حوَّله وبدَّله، كأنَّه جعله غير ما كان"[3]. ومعناه المحوريُّ: "تحوُّل الشَّيء لحِدَّةٍ تخالطه تحوُّلًا تامًّا أو كالتّامّ"[4].

"والتَّغيير يُقال على وجهيْن: أحدهما: لتغيير صورة الشَّيء دون ذاته، يُقال: غيَّرتُ داري؛ إذا بنيتها بناءً غير الَّذي كان، والثّاني: لتبديله بغيره، نحو: غيَّرتُ غلامي ودابَّتي: إذا أبدلتهما بغيرهما، نحو: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾"[5].

3) ﴿مَرَدَّ﴾: الرَّدُّ: صرف الشَّيْء، وردَّه يردُّه ردًّا ومَرَدًّا: صَرَفه[6]. وأصله من رجع الشَّيء[7]. و"الرَّدُّ صرف الشَّيء بذاته أو بحالة من أحواله"[8].

والمَرَدُّ: مصدر كالرَّدِّ، وأمرُ الله لا مَرَدَّ له: لا رادَّ له[9]. ومنه قوله الله تعالى: ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾.

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

يُبَيِّن المولى جَلَّ شأنه في هذه الآية الكريمة أنَّ لكلِّ إنسان ملائكةً وحَفَظةً يحفظون بدنه وروحه مِنْ كلِّ مَنْ يريده بسوء، ويحفظون عليه أعماله، وهم ملازمون له دائمًا، وهذا على

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، المُجمَل، وابن منظور، لسان العرب: (عقب)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/100.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 16/373.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (غير).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غير).
(5) الرّاغب، المفردات: (غير).
(6) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (ردد).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ردد).
(8) الرّاغب، المفردات: (ردد).
(9) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ردد)، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/183.

أحدِ قولَيِ المُفسِّرين، والقول الآخر: هو ما يتَّخذه النّاس من أدواتٍ ووسائل؛ لتحميهم من أقدارِ الله تعالى، ومثَّلوا لذلك بالحرس الَّذي يحرسُ الأُمراء، وهذا القول هو الَّذي رجَّحه إمامُ المُفسِّرين، وهو ما عليه طائفةٌ من السَّلف[1]، وهو المُتناسبُ المتناغم مع السّياقِ، والمُنسحب على قانون البلاغةِ وعاموداها، كما بيَّن سبحانه مدى رحمته بخَلقه؛ فهو لا يُغيِّر ما بهم من النِّعمة والعافية إلى النِّقمة والعقوبة حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم بارتكاب المعاصي، وانتقالهم من بيئة الطّاعة والإيمان إلى بيئة الكفر والعصيان؛ فيسلبهم حينئذٍ النِّعمةَ، ويُحِلُّ عليهم النِّقمةَ، وفي ختام هذه الآية الكريمة يُجلّي لنا ربنا سبحانه مدى قدرته الخارقة من أنَّه تعالى إذا أراد هلاك قومٍ أو عذابهم لا يقدر على ردِّ ذلك أحدٌ، وليس لهم من دون الله وليٌّ، أو حبيب يدفع عنهم البلاء والعذاب[2].

الانتقالُ من نعمةِ الطّاعة إلى نقمةِ المعصية مؤذِنٌ بنزولِ العقابِ التَّأديبيِّ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

علةُ فصل جملة ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾:

يَجوزُ أنْ تَكونَ جملةُ ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ مُتَّصِلَةً بـ ﴿مَّنۡ﴾ المَوْصولَةِ، مِنْ قَوْلِه: ﴿مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾، على أنَّ الجُمْلَةَ خَبَرُ ثانٍ عَنْ ﴿مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ﴾ وما عُطِفَ عَلَيْه.

المعقِّباتُ شأنُها الحفظُ من غوائل الأوقاتِ، لا من إرادةِ ربِّ السَّموات

والضَّميرُ في ﴿لَهُۥ﴾، والضَّميرُ المَنْصوبُ في ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾، وضَميرا ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ جاءَتْ كُلُّها مُفْرَدَةً؛ لِأَنَّ كُلًّا مِنْها عائِدٌ إِلَى أَحَدِ أَصْحاب تِلْكَ الصِّلات، حَيْثُ إِنَّ ذِكْرَهُم ذِكْرُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/374.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/456، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/300، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/486، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/294، وابن جُزيّ، التّسهيل: 1/402، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/377، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/183، والسّيوطيّ والمحلّي، تفسير الجلالين، ص: 323، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 414، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/187.

أقْسام مِنَ الَّذينَ جُعِلوا سَواءً في عِلْمِ اللّه تَعالَى، أيْ: لِكُلٍّ مَنْ أسَرَّ القَوْلَ، ومَنْ جَهَرَ بِهِ، ومَنْ هوَ مُسْتَخْفٍ باللَّيْلِ، وسارِبٌ بالنَّهارِ؛ مُعَقِّباتٌ يَحْفَظونَهُ مِنْ غَوائِلِ تِلْكَ الأوْقاتِ[1].

وهذا التَّوجيهُ يَسْتقيمُ مع القولَيْن المشهورَيْن في تفسيرِ الآيةِ.

معنى اللّام ومرجع الضَّمير في ﴿لَهُۥ﴾:

وظيفةُ المُعقِّبات حمايةُ البشر، واللّام هي لام شبه المِلك

جاءت اللّام في قولِه تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ الَّتي هي لام شبه المِلك، لبيانِ العلاقةِ الوثيقة بين المُعقِّبات والإنسان، وفي هذا دليل على شدَّة اقتراب الملائكة من الإنسان الَّذي يصحبونه، والمعنى: أنَّ لكلٍّ مَن أسرَّ القول، ومَن جهر به، ومَن هو مستخفٍ باللَّيل، وسارب بالنَّهار؛ مُعقِّبات تُحيط به.

وعلى القول بأنَّ المُعقِّبات هي الحرس الَّتي تحرس الإنسان، ونحو ذلك من أدواتٍ يتَّخذها النّاسُ لحمايةِ أنفسِهم من الأقدار، كأساليب الحمايةِ المُتعدِّدة، فإنَّ أقدار اللّه إذا وقعت؛ كانت هذه الوسائل حاميةً للإنسانِ، كمَن يتَّخذ نظامًا لإطفاء الحرائق، فإذا نشب حريقٌ؛ عملَ نظامُ إطفاء الحرائق على إطفائها، فأنقذ الإنسان من الحريق، فإنَّ اللّام تدور ما بين أن تكون للمِلك، أو شبه المِلك.

نكتة إفراد الضَّمائر في الآية الكريمة:

المقصودُ حقيقةً الإنسانُ ككلٍّ فحسُن إفرادُ الضَّمائر

الضَّمائر في قولِه تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ﴾ ترجع إلى قوله: ﴿مَّنْ أَسَرَّ﴾، وهي بمعنى الجمع، فيسأل عن نكتة الإفراد؟ ولماذا لم يَقُلْ: لهم مُعقِّبات؟ وهي الضَّمير في ﴿لَهُۥ﴾، والضَّمير المنصوب في ﴿يَحْفَظُونَهُۥ﴾، وضميرا ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ جاءت مفردة، والجواب: أنَّ كلًّا منها عائدٌ إلى أحد أصحاب تلك الصِّلات؛ حيث إنَّ ذِكرَهم ذِكرُ أقسامٍ من الَّذين

(1) ابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 13/100.

جُعلوا سواءً في علم الله تعالى، والمعنى: أنَّ لكلٍّ مَن أسرَّ القول، ومَن جهر به، ومَن هو مستخفٍ بالليل، وسارب بالنهار؛ مُعقِّبات يراقبون كلَّ أحدٍ في أحواله من إسرار وإعلان، وسكون وحركة وفي جميع أوقاته[1]، ولمّا كان المقصودُ من تلك الأحوال وهي الإسرارُ والجهر، والاستخفاء والظُّهور، ما يعتري الإنسانَ عمومًا؛ صفات الإنسانِ؛ كان الضَّميرُ عائدًا على الإنسانِ بكُلّيَّتِه؛ فحسُن الإفرادُ دون الجمعِ.

غرض التَّقديم في قولِه: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾:

قُدِّم المُسندُ على المُسند إليه في قولِه: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾؛ لغرض التَّخصيص والقصر، فعلى تفسير المُعقِّبات بالملائكة يكون المعنى: أنَّ الله خلقَ لكلِّ إنسان ملائكةً خصَّه سبحانه بهم، فالضَّمير في ﴿لَهُۥ﴾ راجع إلى ﴿مَّنْ﴾ في قوله: ﴿مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ﴾، أيْ: لكلٍّ من هؤلاء مُعقِّبات[2].

اختصاصُ الإنسانِ بالمُعقِّباتِ بما يحميه من شرِّ نفسِه وشرِّ زمانِه

وعلى تفسير المُعقِّبات بما يحرسُ الإنسانَ يكون المعنى: أنَّ الإنسانَ يخصُّ نفسَه بمُعقِّباتٍ تحميه من الأقدارِ، ووسائل تدفعُ عنها غوائل الزَّمان.

بلاغة التَّعبير بلفظ ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾:

المُعقِّبات: جمع مُعقِّبة (اسم فاعل) من (عقَّب)، وفي معناه مبالغةٌ في (عقب)؛ فصيغة التَّفعيل للمبالغة والزّيادة في التَّعقيب؛ فهو تكثير للفعل أو الفاعل.

التاءُ في (مُعقِّبة) للمبالغةِ لبيانِ متينِ ما يُحمى به الإنسانُ

والتّاء في (مُعقِّبة) للمبالغة لا للتَّأنيث؛ لأنَّ الملائكة لا توصف به، مثل نسّابة وعلّامة[3]، فالمعقِّبات، أي: المتناوبات الَّتي يخلف كلُّ واحد منها صاحبه، ويكون بدلًا منه، وهم الحَفَظَة من الملائكة في قول عامَّة المُفسِّرين[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/100.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/83.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/265.
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/83.

يتعاقبون ليل نهار، الجماعة تأتي بعد الأخرى، وقد جاءت بصيغة الاسميَّة؛ لتدلَّ على أنَّهم ثابتون على هذه الصِّفة يظلّون هكذا مع كلِّ إنسان حتى يأتي أمر الله، وقد جاءت بصورة الجمع للكثرة؛ باعتبار كثرة الجَماعات[1].

أو يكون معنى ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ الَّتي تعقب الأحداثَ لتحمي الإنسانَ منها، وذلك على التَّفسير الآخر، وبلاغة التَّعبير تكمن في أنَّها معقِّباتٌ رصينةٌ في ذاتها، متينةٌ في وظيفتها، ثابتةٌ في غايتها، والإنسان يتَّخذها لتكون له حمايةً ووقاية.

وعُبِّر بلفظِ ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ دون الألفاظ الَّتي فُسِّرت بها اللَّفظة؛ لاحتمالِ هذا اللَّفظِ المعاني الَّتي فُسِّرت بها الآية، وهي الملائكة، والأسباب الَّتي يتَّخذها النّاس في حفظ أنفسهم، وكلُّ احتمالٍ له وجهه، والاحتمال الثّاني هو لائقٌ بالسّياق، وإن لم تكن له شهرة الأوَّل.

فائدةُ التَّركيب ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾:

شمولُ التَّركيبِ لأحوالِ الإنسانِ كافَّة

هذا التَّركيب ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ مستعملٌ في معنى الإحاطة من الجهات كلِّها[2]، فالملائكة محيطة به لتحفظ كلَّ شاردة وواردة.

وعلى التَّفسير الآخر، فمعنى التَّركيب: هو ما يأتي الإنسانَ من أمامِه، وما يأتيه من خلفِه على حينِ غِرَّة، فهو يتَّخذ الأسبابَ الَّتي تحميه من كلِّ ما يُتصوَّر وقوع الخطر من جهته، فكان التَّعبيرُ دالًّا على شمولِ هذه المُعقِّباتِ لكلِّ الأحوال.

نكتة مجيء جملة الصفة ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾ متأخِّرةً:

إحاطةُ المُعقِّباتِ بالإنسانِ متقدِّمةٌ على وظيفتها

قولُه تعالى: ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾ صفةٌ لـ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾، وقد فَصل بينها وبين الموصوف بقوله: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾؛ وذلك لبيانِ أنَّ هذه المُعقّباتِ محيطةٌ بالدَّرجةِ الأولى بالإنسانِ؛ إذ لا فائدة

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/360.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/101.

من حفظِها إن لم تكن محيطةً به، فقد يأتي الخطر من جانب، والحفظ يكون من جانب آخر، فكان ذِكر الإحاطةِ قبل الحفظ من حياطة الأفهام.

الحفظُ مستمرٌّ ومتفاوتٌ بحسب احتياجِ الإنسان

وإيثارُ صيغةِ المضارع لبيانِ تجدُّدِ الحفظِ، وأنَّ الحفظ مستمرٌّ باستمرار حياةِ الإنسان، كما أنَّه يومئ إلى تنوُّعِ الحفظ وتفاوته من إنسانٍ لآخر، فإنَّ النّاسَ متفاوتون بدرجاتٍ متباينةٍ في حاجتهم للحفظ، فحفظُ الأميرِ ليس كحفظِ الفقير، وهذا ظاهرٌ على تفسير المُعقِّباتِ بالحرس، وما يجري مجراها من الأسباب الحافظة، والوسائل الحامية ممّا يتخذه النّاسُ.

معنى ﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾:

أفادت (مِنْ) معنى الابتداءِ، وهو الأنسبُ بسياقِ الآيةِ ونظْمِها

﴿مِنۡ﴾ إمّا أن تكونَ للسَّببيَّة، أيْ: بسبب أمر الله تعالى لهم بذلك[1]، فحفظهم ومراقبتهم إيّاه متسبَّبٌ عن أمر الله لَهم بذلك، ووُرود (من) للسَّبب ثابتٌ من لسان العرب[2]، وقيل: إن ﴿مِنۡ﴾ بمعنى (عن)؛ أيْ: يحفظونه عن أمر الله، بمعنى: من عند الله لا من عند أنفسهم[3]، قال الزَّجّاج: "المعنى: حفظهم إيّاه من أمْرِ الله، أيْ: ممّا أمَرَهُمُ الله تعالى به، لا أنَّهم يقدرون أن يدفعوا أمر الله، كما تقول: يحفظونه عن أمر الله"[4]، أيْ: يحفظونه حفظًا صادرًا عن أمرِ الله لهم بذلك الحفظ، وهذا ظاهرٌ على تفسير المُعقِّبات بالملائكة.

أمّا على تفسير المُعقِّبات بالوسائل الحامية؛ فإنَّ ﴿مِنۡ﴾ على بابِها، أيْ: يحفظونه ابتداءً من أمرِ الله بما يجري في هذه الحياة من أحداث، قال أبو البقاء: "مِنْ أمْرِ الله، أيْ: من الجنِّ والإنس،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/107.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/361.
(3) درويش، إعراب القرآن: 5/91.
(4) الزّجّاج، معاني القرآن: 3/142.

فتكون ﴿مِنۡ﴾ على بابها[1]. يعني: أنْ يُرادَ بأمر الله نفسُ ما يُحْفَظُ منه كَمَرَدة الإنس والجنِّ، فتكون ﴿مِنۡ﴾ لابتداء الغاية[2]، أيْ: ما يوقعه الإنس والجنُّ على الإنسانِ من أحداثٍ، فهي لا تكون إلّا بأمر الله وإرادته سبحانه.

والقولُ بأنَّ ﴿مِنۡ﴾ على بابِها من معنى الابتداء هو الأليق بالمقامِ؛ إذ إنَّ المُعقِّبات بمعنى الحرس، والأدوات الحامية، والوسائل الرّاعية للإنسانِ، تحفظُ الإنسانَ ابتداءً من أمر الله تعالى، والمُراد بأمر الله ما يأتي من عمومِ الإنس أو الجنِّ من أمورٍ قد تقع للإنسانِ، فتُحدِثُ له شرًّا.

بلاغةُ ترتيبِ الكلامِ في الآية الكريمة:

ترتيبُ نظْمِ القرآنِ أصلٌ لا يُترك وركْنٌ لا يُجافى

في قولِه تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾، ذهب الفرّاء إلى القول بالتَّقديمِ والتَّأخير بناءً على تفسير المُعقِّبات بالملائكة، فقال: "والمُعقِّبات من أمر الله ﷻ يَحفظونه، وليس يُحفظ من أمْرِه، إنَّما هوَ تقديمٌ وتأخير، والله أعلم، ويكون ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾ ذَلِكَ الحفظ من أمر الله وبأمره وبإذنه ﷻ"[3]، أيْ: له مُعقِّباتٌ من أمرِ الله يحفظونه، والقول بالتَّقديمِ والتَّأخير خلاف الأوْلى في قانون البلاغة، فإنَّ مُقتضى نظمِ القرآن التزامُ ترتيبه لمعرفةِ المُرادِ منه، لا تعكيسه ليوافق تفسيرَ المجتهدين، وكما قال السّمين الحلبيُّ: "وليس في الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ كما زعم الفرّاءُ وغيرُه، وأنَّ الأصلَ: (له مُعَقِّبات مِنْ أمْرِ الله يحفظونه مِنْ بينِ يديه)؛ لأنَّ الأصلَ عدمُه مع الاستغناءِ عنه"[4].

(1) العُكبريّ، التّبيان: 2/754.
(2) السّمين، الدُّرُّ المصون: 7/30.
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 2/60.
(4) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 7/30.

وإنَّما قال الفرّاء ما قال؛ ليستقيم مع تفسير المُعقِّبات بالملائكةِ، مع عدم تقبُّلِه لأنْ تحفظ الملائكة الإنسانَ من أمرِ الله، وهي تحفظ بأمر الله، فقال بأنَّ الكلامَ على التَّقديمِ والتَّأخير، أيْ: إنَّ المعقِّبات آتيةٌ من أمر الله للحفظِ.

فائدة الإضافة في ﴿أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾:

الملائكةُ والإنس والجنُّ جميعًا ضمن أمر الله وإرادته

في إضافة ﴿أَمۡرِ﴾ للفظ الجلالةِ تأكيدٌ للسّامع أنَّ هؤلاء الملائكة ليسوا مأمورين من قبل أيِّ أحدٍ، وإنَّما من الله القهّار الَّذي يكون ما يقول؛ فهم مطيعون منقادون لهذا الأمر، ولا رادع يمنعهم عنه، ولا تقصير في أداء مهمَّتهم، فإذا علم المرء أنَّ الملائكة يكتبون ما يفعله ويقوله؛ كان هذا رادعًا له عن المعاصي، وإذا علم أنَّ الله هو مَن كلفهم بهذا؛ كان الرّادع أكمل.

وعلى تفسير المُعقِّبات بالحرس والأدوات الحامية، وتفسير أمرِ الله بما يقع من الإنس والجنِّ، فإطلاقُ ﴿أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ بدلًا ممّا يقع من الإنسِ والجنِّ؛ لبيانِ أن لا شيءَ يقع إلّا بأمره ﷻ، فكلُّه ضمن أمرِه بمعنى إرادته تعالى.

علَّة الفَصْل في الآية:

الإصـــرار على الشِّـرك جـزاؤه زوال النِّـعـم وحلول العقاب

هذه الجملة - في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ - جاءت معترضة بين الجُمَل المتقدّمة المَسوقة للاستدلال على عظيم قدرة الله تعالى وعلمه بمصنوعاته وبين التَّذكير بقوَّة قدرته وبين جملة ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾، والمقصود تحذيرهم من الإصرار على الشِّرك بتحذيرهم من حلول العقاب في الدُّنيا في مقابلة استعجالهم بالسَّيِّئة قبل الحسنة، ذلك أنَّهم كانوا في نعمة من العيش، فبطروا النِّعمة، وقابلوا دعوة الرَّسول ﷺ بالهُزْءِ، وعاملوا المؤمنين بالتَّحقير، فقالوا: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ ٣١﴾ [الزّخرف: 31]، ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ١١﴾ [المُزّمّل: 11].

فذكَّرهم الله بنعمته عليهم، ونبَّههم إلى أنَّ زوالها لا يكون إلا بسبب أعمالهم السَّيِّئة بعد ما أنذرهم، ودعاهم[1].

نكتة التَّأكيد:

في التَّأكيد على هذا المعنى - في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ - تنبيهٌ للزوم الطّاعة لعظيم أجرِها، ووبال المعصية، حيث قال عزَّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من النِّعمة والعافية ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾؛ أيْ: ما اتَّصفت به ذواتهم من الأحوال الجميلة، لا ما أضمروه، ونووه فقط، والمُراد بتغيير ذلك تبديله بخلافه لا مجرَّد تركه[2].

يُجازى المرء على ما يُقدِّمه من أعمال

وبهذا التَّوكيد يطمئنُّ المحسن بأنَّه في حفظ الله دائمًا، فلا خوف عليه من عقاب الله، وبه يتوعَّد الله المُسيء بعذابه لإصراره على المعصية.

فائدة التقديم في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾:

تقدَّم المُسند إليه (الفاعل) وهو لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ بما فيه من معاني الكمال على المُسنَد الفعليِّ المنفيِّ ﴿لَا يُغَيِّرُ﴾؛ طمأنةً للمُحسن، وتخويفًا للمُسيء، وتأكيدًا لفضل الطّاعة ووبال المعصية، فلا شيء يُعجز الله القادر، ولا مَردَّ لحُكْمه.

التَّغييرُ لا يكون من الله إلّا عند وقوعه من النّاسِ

كما أنَّ هذا التَّقديم أفاد الحصر، فإنَّ التَّغييرَ لا يقع من الله إلّا عند وقوعِ التَّغييرِ من النّاس، وفيه إشارةٌ إلى وعد الله تعالى لعبادِه ألّا يكون إيقاعُ العقوبةِ، إلّا إذا وقعت منهم معصيةٌ عامَّة.

سرُّ التَّعبير بمفردة ﴿يُغَيِّرُ﴾:

تدور معاني التَّغيير حول الاختلاف، فقولنا: هذا الشَّيء غير ذاك، أيْ: هو سواه وخلافه[3]، مخالفةً تامَّة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: 48].

التَّغيير تحويلُ الشَّيءِ بما يخالفه مخالفةً تامَّةً، والتَّبديل تبديل صورةِ الشَّيءِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/101 - 102.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/110.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غير).

أمّا التَّبديل؛ فتدور معانيه حول قيام شيءٍ مقام شيءٍ ذاهبٍ، يُقال: هذا بدل الشَّيء وبديله[1].

وبدَّلتُ الحلقة بالخاتم؛ إذا أذبتها وجعلتها خاتمًا، قال أبو العبّاس: وحقيقته أنَّ التَّبديل تغيير الصّورة إلى صورةٍ أخرى والجوهرة بعينها[2].

والتَّغيير: التَّبديل بالمغاير، فلا جرم أنَّه تهديدٌ لأولي النِّعمة من المشركين بأنَّهم قد تعرَّضوا لتغييرها[3]. فعبَّر في الآية الكريمة بـ ﴿يُغَيِّرُ﴾ ليخوِّفهم من تبديل جوهر حالهم وأصله، إلى حالٍ آخر لا علاقة له بالأوَّل بتاتًا؛ فعند ذلك يقع التَّغييرُ الماحقُ الَّذي حذَّر الله عبادَه منه.

نكتة المضارع المَنفيّ في ﴿لَا يُغَيِّرُ﴾:

في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾، أي: إنَّ الله لا يسلب قومًا نعمةً أنعم بها عليهم حتى يُغيّروا الَّذي بأنفسهم من الخير والأعمال الصّالحة، أو يُغيّروا الفطرة الَّتي فطرهم الله عليها[4]، وجاء الحدث مُعبَّرًا عنه بصيغة المضارع المنفيِّ؛ لما في ذلك من وعدٍ أكيدٍ بنفي التَّغيير في كلِّ الأحوالِ المُتجدِّدة، إلّا في حالٍ واحدةٍ، وهي حال إحداثِ التَّغييرِ من قِبَل النّاسِ أنفسِهم.

وعـدٌ مـن الله بنفي التَّغيير في كلِّ مُستجدٍّ إلّا في حال وقوعه من النّاس

فائدة مجيء الموصول بأداة ﴿مَا﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾، المقصودُ بـ ﴿مَا﴾ الموصولة هو حالةٌ، أيْ: حالة نعمةٍ؛ لأنَّها محلُّ التَّحذير من التَّغيير، وأمّا غيرها؛ فتغييره مطلوبٌ[5]. وصلتها ﴿بِقَوْمٍ﴾، وكذا ﴿مَا

إبهام الأحوال وعمومها، فأيُّ حالةٍ تدخل في مضمون الخطاب

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدل).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (بدل).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/102.
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/84.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/102.

بِأَنفُسِهِمْ﴾. وفي ﴿مَا﴾ إبهامٌ؛ لا يتغيَّر المُراد منها إلا بسياق الكلام واعتقادٍ محذوفٍ يتبيَّن به المعنى، والتَّقدير: لا يُغيِّر ما بقوم من نعمة وخيرٍ إلى ضدِّ ذلك حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم من طاعته إلى توالي معصيته[1]، وجيءَ بها بغرضِ العموم، أيْ: إنَّ الله لا يُغيِّر ما بقومٍ من أيِّ حالةٍ كانت، إلى الأخرى حتى يُحدِثوا هم التَّغيير.

معنى الباء في قوله: ﴿بِقَوْمٍ﴾:

الباء للمُلابسة، والمعنى: حالة مُلابِسَةٌ لِقَوم؛ أيْ: حالة نعمة وخير؛ لأنَّها محلُّ التَّحذير من التَّغيير، وأمّا غيرها؛ فتغييره مطلوب[2].

سرُّ ذكر ﴿بِقَوْمٍ﴾ دون (أحد):

تدور معاني كلمة (أحد) حول الانفراد[3]. أمّا لفظ (قوم)؛ فتدور معانيه حول الانتصاب والتجمُّع والمراعاة[4]، وهذه الظِّلال الدّلاليَّة تُبرز لنا سِرَّ إيثار التَّعبير بلفظ (قوم) دون أحدٍ؛ وهؤلاء الكافرون قوم اجتمعوا على التَّكذيب والجحود، فناسب ذلك العناد المجتمع لفظ (قوم)، ولذلك كان التَّغيير تغييرًا يشملهم جميعًا، بل قد يُصيب البلاء غير المذنب المجتمع بهم.

تهديدٌ بقدرة الله للمجتمعين على التَّكذيب والكفر

كما أنَّ لفظَ (قوم) فيه معنى القيام بالشّيءِ، فإنَّ القومَ قد قاموا على تغييرِ ما بهم من نِعَم، إلى ضدِّها، وهذا يدلُّ على أنَّ الله لا يظلمُ آحادَ النّاس، فيُغيِّر ما بهم؛ لأنَّ بعضهم قد غيَّر، بل لا يحدثُ التَّغييرُ إلّا إذا وقع التَّغيير ممَّن قام عليه، وبه، وإليه، باجتماعِ النّاس قائمين على تغييرِه.

فالله لا يُغيِّر ما بقوم حتى يقع منهم تغيير، إمّا منهم أو من

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/363.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/102.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أحد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قوم).

النّاظر لهم، أو ممَّن هو منهم بسبب، كما غيَّر الله بالمنهزمين يوم أُحُد بسبب تغيير الرُّماة بأنفسهم، إلى غير هذا من أمثلة الشَّريعة[1].

معنى ﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ﴾:

في قوله: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾، ﴿حَتَّىٰ﴾ الجارَّة - عند البَصْريّين - جاءت بمعنى الغاية هنا، والتَّقدير: إلى أن يُغَيّروا، وعلامة كونها للغاية أن يحسُن في موضعها (إلى أن)[2].

ترهيب المتمادي في المعصية بشدَّة العقاب، وترغيب التّائب بعظيم الثَّواب

والمعنى: أنَّ الله سبحانه لا يُغيِّر ما بقوم إلى أن يُغيِّروا ما بأنفسهم، وليس معنى الآية: أنَّه ليس ينزل بأحدٍ عقوبة إلّا بأنْ يتقدَّم منه ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الآخرين[3]، فالعبرةُ بأن يحدث التَّغييرُ من المجموع الكليِّ، الَّذين يقومون على إحداثه، وهناك مصائب يريد الله بها أجر المُصاب، فتلك ليست تغييرًا[4] منه، بل هي تغييرٌ وقع عليه، فليس عليه وزرها، بل له الأجر إن أمرَ بالمعروفِ، ونهى عن المنكر، فإنَّ الله لا يُكلِّف نفسًا إلّا وُسْعها.

بلاغة وقوع ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ﴾ موقع التَّسبُّب:

المعاصي بريد نزول النِّقم، والاستقامة سبيل مُثول النِّعم

أُطلق التغيير في قوله: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ﴾ على التَّسبُّب فيه على طريقة المجاز العقليِّ[5]. وأُسنِد الفاعل إلى غير فاعله، فكأنَّه جعل اختيارهم التَّغيير قدرةً منهم عليه، ومعنى التَّسبُّب هنا ليس المُراد منه أنَّه لا يُنزل بأحدٍ من عباد الله عقوبةً حتى يتقدَّم له ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الآخرين، كما في الحديث[6] أنَّ رسول الله سأله سائل: «أنهلِك وفينا الصّالحون؟ قال: نعم؛ إذا كثُر

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/294.
(2) ابن قاسم المُراديّ، الجنى الدَّاني، ص: 554.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/294.
(4) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/303.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/102.
(6) الحديث عن أمّ المؤمنين زينب بنت جحش ﵂، صحيح البخاريّ، كتاب أحاديث الأنبياء صلوات الله عليهم، حديث رقم: (3346): 4/138.

الخَبَث»[1]؛ فقد تنزل مصائب بذنوب الآخرين، ومصائب يريد الله بها أجر المُصاب[2].

معنى الواو في ﴿وَإِذَآ﴾:

مقام التَّخويف والتَّحذير يقتضي التَّقريع والتَّكرير

الواو عاطفة، وجملة ﴿وَإِذَآ أَرَادَ﴾ معطوفة على جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[3].

وفائدة هذا العطف هي أنَّ جملة ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ تصريح بمفهوم الغاية المُستفاد من ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ تأكيدًا للتَّحذير؛ لأنَّ المقام لكونه مقام خوف ووجل يقتضي التَّصريح دون التَّعريض ولا ما يقرب منه[4].

سرُّ التَّعبير بأداة الشَّرط ﴿وَإِذَآ﴾:

بمجرَّد إرادة الله إنــزالَ الـعـذاب بقومٍ فإنَّه يقع بهم مُتحقِّقًا

في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا﴾، معنى ﴿وَإِذَآ﴾ هو تحقُّقُ الحدث، أيْ: إذا أراد الله أن يُغيِّر ما بقوم حين يُغيِّرون ما بأنفسهم لا يردُّ إرادته شيء، وذلك تحذير من الغرور أن يقولوا: سنسترسل على ما نحن فيه، فإذا رأينا العذاب؛ آمنّا، وهذا كقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس: 98][5].

غرضُ التأخير في قولِه: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّـهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا﴾:

الـلـه مُـنـزَّهٌ عن إرادةِ الـسّـوء مُـطـلـقًـا فـهـي مُـقيَّدةٌ بأحوالٍ مخصوصةٍ

تأخَّر المفعول به اهتمامًا بما تعلَّق به ﴿بِقَوْمٍ﴾، وقد جرى في طريقة التَّنبيه على قدرة الله تعالى وإحاطته، تخويفًا لكلِّ امرئ على حِدَته؛ فالله الَّذي يُغيِّر أقوامًا لن يعجزه تغييرك أيُّها العبد.

كما أنَّ السّوء والخير بمنزلة واحدة في أنَّهما إذا أرادهما الله

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/294.
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/303.
(3) الصّافي، الجدول: 3/99.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/102.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/102.

بعبد؛ لم يُردّا[1]. ولمّا كان سياق الكلام في تخويف للعصاة؛ اقتصر على قوله: ﴿سُوٓءًا﴾؛ وذلك لبيان قدرته، فإذا أراد تعالى شيئًا؛ فلا مَردَّ له، فذكر السّوء مبالغةً في التَّخويف[2].

وغرضُ التَّقديم تنزيهُ الله عن إرادةِ السّوءِ مُطلقًا، فقُدِّم الجارُّ والمجرور بغرضِ التَّقييدِ، وهذا من ملائِح التَّقديمِ في القرآن الكريم، ونكتةٌ أخرى أقرب لأن تكون لطيفةً، فلو قال: (وإذا أراد الله سوءًا بقوم)، ووقف القارئ عند قولِه: (سوءًا)؛ لما صحَّ الوقفُ بأيِّ حالٍ، فقُدِّم الجارُّ والمجرور رعايةً لهذا الأدبِ.

نكتةُ التَّعبير بلفظِ الجلالة في الآية:

ذِكْـرُ عـنـوانِ الألوهيَّة أدعى لـلارتـداع عن مسالك الابتداع

عُبِّر بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾، ولم يُعبَّر بـ (الرَّبّ)، في قولِه: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا﴾؛ لأنَّ الرَّبَّ هو المُربي والقيّم على الأمر والرّازق والهادي، وربُّ الشَّخص عادة يريد له هدايته وصلاحه وخيره، والشَّخص إذا أصابه سوءٌ أو فَزَعٌ؛ فَزِعَ إلى مالك الأمر والقائم عليه، وذِكْرُ لفظ الجلالةِ لما فيه من توريثِ المهابةِ في نفوسِ العبادِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الإرادةَ صادرةٌ عن الله ﷻ، فذلك أدعى للارتداعِ عن مسالك الابتداعِ.

وفي القرآن الكريم لم يَرِد إسنادُ إرادة السّوء أو الضُّرّ إلى لفظِ الرَّبّ، وإنَّما إلى لفظِ الجلالةِ، فمثلًا قال تعالى: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ﴾ [المائدة: 17]، وقال: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾، وقال: ﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا﴾ [الأحزاب: 17].

أمّا إذا ذُكِر لفظُ الرَّبِّ؛ فلا يُسند إليه إلا إرادة الخير والرُّشد ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ [الكهف: 82]، ﴿أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾ [الجنّ: 10].

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/303.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/363.

يعني: إسنادُ إرادة العقوبات والخيرِ يكون إلى لفظِ الجلالةِ، لكن إذا ذُكِر لفظُ الرَّبِّ في القرآن؛ فلا يُسنَد إليه إلّا إرادة الخير[1].

بلاغة اختيار مفردة ﴿سُوٓءًا﴾:

تدور معاني السّوء حول القبح[2]، وهو كلُّ ما يغمُّ الإنسان[3]. أمّا العقوبة؛ فتدور معانيها حول التَّأخير وإتيان الشَّيء بعد غيره، وقد سُمّيت عقوبةً؛ لأنَّها تكون آخرًا (ثاني الذَّنب)[4]. والعقاب والمعاقبة أن يُجزى الرَّجل بما فعل سوءًا، وعاقبه بذنبه معاقبةً وعقابًا: أخذه به[5]، ولمّا كان السّياق سياق تخويف وإنذار؛ ذكر اللّه السّوء وحده؛ لأنَّه يجمع كلَّ ما يسوء من مرض وفقر وغيرهما من أنواع البلاء[6]، فيعمُّ كلَّ بلاءٍ، واللّه يأخذُ النّاس ببلاءٍ يُناسبُ حالَهم، ويقع موقع العدلِ مع سلوكهم.

ذُكِر السّوء؛ لأنَّه يجمع كلَّ ما يسوء؛ فهو أعمُّ من العقوبة

نكتة استعمال ﴿مَرَدَّ﴾ دون (ردٍّ):

عُبِّر بالمصدر الميميِّ للدَّلالة على الاهتمام بالحدَث لا بمَن أحدثه، أيْ: فلا ردَّ له[7]. ونفيه بـ (لا) النّافية للجنس يتضمَّن تخويفًا لهم، بمعنى: أنَّه لا يكون ردٌّ إلّا بقدر اللّه، فلا أحدَ أي أحدٍ كان يقدر على دفعه، بل لو اجتمع أهل السَّموات وأهل الأرض كلُّهم جميعًا لردِّ السّوء، فلن يستطيعوا.

لا يُرَدُّ قضاء الله عن معاقَب، ولو اجتمع لذلك أهل الأرض والسَّموات

معنى الواو في قوله: ﴿وَمَا لَهُم﴾:

الواو عاطفة، حيث عطفت جملة ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ على جملة جواب الشَّرط السّابقة: ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾[8].

تحذير المُفترين أنَّ أصنامهم تُنجّيهم من عذابِ الله

(1) السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة: 12/313.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوء).
(3) الرّاغب، مفردات القرآن: (سوء).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (عقب).
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/111.
(7) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/111.
(8) الصّافي، الجدول: 7/99.

وقد أفاد هذا العطف زيادة في التَّحذير من الغرور؛ لئلّا يحسبوا أنَّ أصنامهم شفعاؤهم عند الله[1].

فائدة التَّعبير بأداة ﴿وَمَا﴾ للنَّفي:

عدَلَ في الجملة عن النَّفي بـ (لا) الَّتي في الجملة السّابقة ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾، كما عدَلَ عن استعمال المصدر الميميّ، كما استعمله في ﴿مَرَدَّ﴾، وآثر الاسم ﴿وَالٍ﴾؛ ذلك لما في النَّفي بـ (ما) من معنى العموم، وقد دلَّت على عموم نفي الولاية في كلِّ الأزمنة، ولا شكَّ أن (ما) أوسع استعمالًا لنفي الجنس من (لا)؛ فإنَّنا نستطيع نفي الجنس بها مُتَّصلةً ومُنْفصلة، وقد جاءت ﴿وَمَا﴾ هنا، ومعها ﴿مِّن﴾ الاستغراقيَّة الزّائدة الَّتي تعني: استغراق نفي الجنس[2]، والمقصود نفي جنس الولاية عنهم.

نفيُ عموم الولاية من دون الله في كلِّ الأزمنة

نكتة تقديم الخبر ﴿لَهُم﴾:

أفادت هذه الجملة الكريمة تأكيد نفي وجود ناصر ينصر الَّذين كفروا بالله؛ إن أراد الله أن يُعذِّبهم، وذلك عن طريق نفي الجنس الَّذي أفاده اقتران (ما) النّافية العاملة عمل ليس، و﴿مِّن﴾ الزّائدة في خبرها.

تأكيد نفي وجود والٍ عن كلِّ أحدٍ لاسيَّما عمَّن حقَّت عليهم كلمة العذاب

ومن هنا تبرز نكتة تقديم الخبر ﴿لَهُم﴾ الَّذي أفاد التَّخصيص والتَّوكيد، فما لهؤلاء الَّذين أراد الله أن يُعذِّبهم من ناصرٍ ينصرهم من دون الله تعالى.

وقد جاء هذا التَّقديم جريًا على نسق الآية الكريمة، حيث قال الله تعالى في أوَّلها: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾، فإن قضى الله نزوله عليهم؛ فليس لهؤلاء الَّذين قصدهم الله بعذابه من مانع يَحجُبهم، أو ناصر ينصرهم، أو صَريخ يُغيثهم.

ويُضاف إلى ذلك أنَّ تقديم هذا الخبر قد أتاح لاسم (ما) المتأخِّر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/102.
(2) السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة: 11/27.

- وهو ﴿وَالٍ﴾ - أن يُؤَكَّد بالحرف الزّائد (من)، والحاصل أنَّه قد اجتمعت في هذه الجملة الكريمة جملةٌ من المُؤكِّدات، وهي النَّفي بـ (ما)، وتقديم خبرها على اسمها، ودخول حرف الجرّ الزّائد على خبرها، ومجيئها معطوفة على جملة مصدَّرة بـ (لا) الَّتي لنفي الجنس.

دلالة التَّعبير بقوله: ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾:

التَّعبير يوحي بدونيَّة جميع الأغيار، وعُلوّ اللّه الواحد القهّار

دون: نقيضُ فوق (أيْ: إنَّها بمعنى: تحت)، وتعني هذه التَّحتيَّة كَوْن الشَّيء منخفضًا في أسفل شيء، ولأنَّ المنخفض قريب التَّناول استُعملت في معنى قرب المسافة، ومن كون الشَّيء أقربَ من شيء بعدَه، استُعملت في معنى الاختصاص بالشَّيء من حيث إنَّ الأقرب إلى الشَّيء يحوزه أوَّلًا قبلَ غيره، ثمَّ دونَ غيره، ويؤول هذا الاختصاص إلى معنى الغيريَّة ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: 50] يُساوي (من غير المؤمنين) ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: 50]؛ أيْ: هبة النِّساء أنفسهنَّ مُختصٌّ بك لا يجوز أن تهب المرأة نفسها لغيرك، وبهذا جاء التَّركيب: (من دون اللّه)، (من دون الرَّحمن)، (من دونه)[1].

كما أنَّ التَّعبير بدون، يومئ إلى أنَّ كلَّ ما يعتقده المشركون بإنزال النَّفع لهم، فهو دون اللّه تعالى، وما كان دون اللّه؛ فهو في الدّونِ، وقد بيَّن اللّه سبحانه في هذه الآية الكريمة نفي عموم الولاية باستثناء ولايته جلَّ شأنه؛ أيْ: ليس لهم من دون اللّه مَن يتولّاهم.

بلاغة التَّعبير بقوله: ﴿مِن وَالٍ﴾:

عموم نفي النُّصرة والمحبَّة والنَّفع بين المشركين وأندادهم

الوالي هو الَّذي يَلي أمرَ أحدٍ، أيْ: يشتغل بأمره اشتغال تدبير ونفع، مشتقٌّ من (ولي)؛ إذا قرب، وهو قرب مُلابسة ومعالجة[2]، والمعنى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾ سبحانه ﴿مِن وَالٍ﴾ يلي أمورهم من ضَرٍّ ونفع[3]. فليس لهم مَن يلتجئون إليه، فيدفع عنهم ما ينزل بهم

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دون).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/102.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/111.

من الله سبحانه من العقاب[1]. وهذا المعنى لا تُؤدّيه مفردة ناصر الّتي تدور معانيها حول إتيان الخير وإيتائه[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

التّغيير والتّبديل:

التّغيير التّبديل بالمغاير، والتّبديل لا يُشترط فيه الاختلاف والمخالفة

الغين والياء والرّاء أصلان، أحدهما يدلُّ على اختلاف شيئَيْن[3]، والباء والدّال واللّام أصلٌ واحد، وهو قيام الشَّيء مقام الشَّيء الذّاهب[4]، والتّغيير: التّبديل بالمغاير[5]؛ فإذا أتيت بثوب أبيض مكان ثوب أسود مختلفٍ في القماش واللّون؛ قلتَ: غيَّرتُ الثّوب، وإذا أتيتَ بثوب أبيض مكان ثوب أسود، مصنوع من قماش واحدٍ، وكان الثّوبان لا يختلفان في شيء؛ قلتَ: بدَّلتُ الثّوب.

ويدور معنى التّغيير حول تحوُّل الشَّيء تحوُّلًا تامًّا أو كالتّامِّ، كتحوُّل نفس الغَيْرانِ من الرِّضا ونحوه إلى الغضب الشَّديد، وكالتحوُّل من القصاص إلى الدّية، ويُرَجَّح أنَّ أصلَ هذا التَّحوُّل يكون من حَسَن أو خَير إلى شرٍّ، كما جاء في الآية الكريمة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال: 53].

والتَّحوُّل من ذات أو حال إلى ذات أو حال أخرى ينشأ عنه معنى الاختلاف والمخالفة من جهتَيْن: أوّلاهما: أنَّ أحدهما مختلف عن الآخر ضرورة. والثّانية: أنَّ المتأخِّر منهما يخلف السّابق، قالوا: تغايرت الأشياء: اختلفت، ومن هذا الاختلاف جاءت ﴿غَيۡرَ﴾ صفةً بمعناه: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾ [البقرة: 59][6].

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/84.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غير).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدل).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/102.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 3/1568، 1569.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 23 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-20-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 23 : المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-20-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8086351 بتاريخ 2024/02/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»